حدود الإسلام: استكشاف تصدعات صمويل هنتنغتون، من الأندلس إلى الأمة الافتراضية

حرره: ستيغ جارل هانسن، أتله مسوي وتونجاي كارداش

مراجعة: نعمان تلجي

يعطي كتاب حدود الإسلام وجهة نظر من الداخل عما يسمى بـ"الحدود الدموية للإسلام" من خلال دراسة البلدان التي تنتشر فيها ثقافتان/ حضارتان من مناطق مختلفة. يشكل الكتاب إسهامًا كبيرًا للمناقشات التي تدور حول "صدام الحضارات" من خلال دراسة حالات مهمّة ومختلفة من الحروب والصراعات، والتي هي أحد العناصر الرئيسة للأطروحة التي صاغها صمويل هنتنغتون، وروجت لها وسائل الإعلام. يتناول هانسن، ومسوي، وقارداش أطروحة هنتنغتون الرئيسة، وذلك بهدف دحضها. يبرز الكتاب على أنه أحد أقوى الحجج المضادة للافتراضات الرئيسة لأطروحة صراع الحضارات. فهو يرى أن الصدام يحدث في بعض الأحيان، كما هو الحال في الصراعات الداخلية والخارجية المختلفة التي تجري في العراق وحوله، أو أنه لا يبالي بالانقسام داخل الحضارة الإسلامية، كما هو الحال مع لبنان حيث لأهل السنة أجندة مختلفة عن المسلمين الشيعة، أو أن الصدام بين المسلمين والمسيحيين في نيجيريا ليس بالضرورة يحركه الدين، وكذلك إثيوبيا أو السودان. وبوضع إطار لهذه الحجة، يحاول الكتاب فهم ما إذا كان الدين يمكن أن يُعَدّ مصدر الصراعات بين الجماعات التي لديها عقائد دينية مختلفة.

ويرى ريجبي ويوهانسن أن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي في كثير من الأحيان يتم تبسيطه وتقليصه إلى ثنائية الإسلام واليهودية. ويعدون أن جوهر الصراع يقع على عاتق القوميين في كلا الجانبين. ومن خلال تحليل المناهج الأصولية للمسلمين، والمعتقدات اليهودية والمسيحية في إسرائيل، يخلص الباحثون إلى أنه على الرغم من الاختلافات في المعتقدات الدينية، إلا أنهم متحدون حول نفس الهدف: دفع النزاع بين الطوائف.

أما حجج بوناصيف، فتخدم بشكل خاص الهدف الأساسي للكتاب، بشأن دحض أطروحة هنتنغتون. على سبيل المثال، في حين يرى هنتنغتون أن السبب الرئيس للنزاعات الأهلية اللبنانية كان الصراعات بين المسيحيين الموارنة والشيعة/ السنة، يقول بوناصيف إن العديد من الاشتباكات العنيفة كانت بين الطوائف المسلمة المختلفة داخل البلاد. ويرى كذلك أن التركيز الوحيد على المسلمين مقابل غير المسلمين لخط صدع الصراعات يؤدي إلى رسم "رؤية ثابتة للإسلام الذي يتجاهل بعض دينامياته الأساسية الداخلية" (ص43). على غرار الحالة اللبنانية، يوضح خوري وشولز أن المشكلات في باكستان وإندونيسيا هي صراعات بين أهل الدين الواحد. ويؤكدون أن محور المشكلات في هذه البلدان هو التسييس (باكستان، ص65-82، وإثيوبيا،

ص148–150) والتطرف (إندونيسيا، ص83–98) بدلًا من التحلي بهدي العقيدة الإسلامية. ومن ثَمّ، فمن الخطأ تعريف النزاعات التي تنشأ في هذه الدول، على أنها صراعات بين الأديان (أو بين الحضارات). ويحلل جيرارد برونير الحالة السودانية ويعطي صورة مماثلة. ويدحض نظرية هنتنغتون بشكل واضح، ويبين برونير أن هوية السودان العرقية كانت دائمًا بارزة، متجاوزة التدين، وأن هذا الفصل العرقي الإفريقي العربي في صلب النزاعات السودانية.

أما الانقسامات التاريخية الإمبريالية لأي بلد فهي مسار سببي آخر، ويمكن أن تلعب الصراعات القبلية من خلالها، بغض النظر عن الانتماء الديني، دورًا بارزًا في المشهد الجيوسياسي اليوم. وذلك كما توضح حجة بن ريد حول الفلبين، حيث إن الصراع في الفلبين ليس بين الإسلام والمسيحية/ التغريب، ولكنه نضال من أجل إنهاء التركات والعواقب التاريخية الناجمة عن تشكيل دولة الفلبين الاستعمارية. هذا هو الحال أيضًا في دراسة ساكا محمود حول نيجيريا. فمن خلال تصنيف الصراعات في نيجيريا إلى ثلاث مجموعات، يخلص محمود إلى أن القضية النيجيرية تقدم على الأقل ثلاث حجج مضادة لأطروحة صدام الحضارات.

يتم تناول "الحدود الأوروبية للإسلام" من خلال أربع دراسات. في حالات البوسنة والشيشان، ثمة من يقول إن التفاعل بين الدين والقومية أشعل الشرارة الأولى للصراع. ويسلط جيمس هيوز الضوء على الأهمية الزمنية في حجته. ويشير إلى أن الصراع بين الشيشان وروسيا كان في البداية صراعًا قوميًّا. فالنزاع في الشيشان لم ينشأ كخط صدع تاريخي لحرب دينية، كما يقول هنتنغتون، ولكن بوصفه ثورة قومية علمانية رفضت الاستعمار السوفيتي (ص173). ولم تتحول مشكلة الشيشان إلى صراع جهادي ذات دوافع دينية إلا بعد رفع الروس مستوى الصراع من الساحة السياسية إلى القتال الفعلي. تفسير هنتنغتون لحرب الشيشان على أنه اشتباك ذو دوافع دينية هو سوء فهم آخر للصراع القومي العلماني.

في الفصل التالي يتحدى قارداش الفرضيات الأساسية لأطروحة هنتنغتون، الذي يصور الإسلام على أنه متجانس، ومتحجر فكريًّا، وعابر للتاريخ، وديـن مختلف وفي مسار تصادمي مع العالم الغربي؟ يختبر قارداش مثل هذا الرأي من خلال تحليل التحول المذهل للإسلام السياسي في تركيا خطابيًّا وعمليًّا. وفقًا لاستنتاجاته، مآزق تركيا وصراعاتها السياسية المحلية لم تكن بسبب مقوماتها الإسلامية ولكن بسبب أساليب سياسات الدولة الخاصة بتوريق الهويات العلمانية والإسلامية.

أما البوسنة؛ فهي قضية أخرى تتناقض مع نظرية هنتنغتون. يقول مونسلاند إن الاختلافات العميقة الكامنة في الدين ومفهوم التاريخ الموجودة في منطقة البلقان، محفورة في الصراعات، ولكنها ليست في حد ذاتها سببًا للصراعات. ويخلص فصله إلى أن الصراعات في البلقان يجب أن تفسر على أنها «طبيعية» أكثر مما هو عليه الحال لأنها أساسًا صراعات بين المصالح المتنافسة، على غرار الصراعات الموجودة في أجزاء أخرى من أوروبا.

وباستكمال الفصول الأخرى، تشدد إيلينا أريجيتا على تأثير الإسلام في الهوية الثقافية الإسبانية. وتجادل بأن الدين الإسلامي هو أحد المعتقدات الروحية التي شكلت الشخصية التاريخية لإسبانيا. على عكس هنتنغتون تعتقد أن تفاعلًا بين الأديان حدث ويحدث، وأن هذه العملية أمر لا مفر منه. على سبيل المثال، أدى هذا التفاعل إلى أن بلدين من ديانتين مختلفتين، وهما إسبانيا وتركيا، تشرعان

في مـشروع من أجل معالجة أطروحة صراع الحضارات، أي مبادرة تحالف الحضارات.

الفصول الأخيرة من الكتاب تتناول "الحدود الغربية للإسـلام". الحجة الرئيسـة هنا هي أنـه إذا كانت حجج ادعاءات هنتنغتون صحيحة، فلا بد من وجود صراعات وحروب حيث يتصادم الغرب والإسلام. هذه الفصول تتحقق من هذه الحقيقة من خلال تأكيد مستوى التطرف بين المسلمين في المجتمعات الغربية. لوحظ أن مستويات الديمقراطية المرتفعة، تسـمح بعمليـات تطرف متفاوتة بين المسـلمين الذين يعيشـون في المجتمعـات الغربية كما هو الحال في بريطانيا. بالنسـبة لدومينيك توماس، الذي يدرس حالـة بريطانيا، التطرف بين المجتمعات المسـلمة في الغـرب لا يمكن تفسـيره على أنه مجـرد نتيجة لصدام بين حضارتين. الحالة الفرنسـية وتحليلها بواسـطة فرهاد خوسروخافر، تظهر أيضًا النتيجة نفسها تقريبًا فيما يتعلق بتطرف المسلمين في فرنسا.

عـلى الرغم مـن العديد مـن الإسـهامات الثرية، إلا أن الكتاب يخفق في تقديم تفسـير شـامل للطبيعة المتغيرة "للصدام". ولا يمكن إنكار أن "الصدام" بين الحضارتين موجود وسيسـتمر. لكن ما يتـم تجاهله غالبًا هو أن هذه الاشـتباكات قد لا تتم على النحو الذي صوره هنتنغتون . عمومًا، على الرغم مـن أن الكتاب يغطي تقريبًا الكثير من جوانب خطاب صراع الحضارات، إلا أن هذا العمل كان مـن الممكـن أن يظهر بشـكل أفضـل، إذا ما تضمن الكتاب فصولًا حـول بعض البلدان الأفريقية الأخرى، وكذلك الهند وألمانيا، والتي هي على الخطوط الأمامية لما يسمى بصراع نواح كثيرة. لكن لم يكن من السهل تحدي موضـوع مثير للجدل في السياسـة العالمية، مثل أطروحة الصدام. لقد قام هانسن، ومنسوي، وقارداش بمحاولة جريئة لتحقيق ذلك.